الثّقافة واللّغة في الجزائر: تنوع وتكامل.

Culture and Language in Algeria, diversity and complimentarity.

أ. ذهبية سيدهم*

تاريخ الاستلام: 2021.04.11 تاريخ القبـول: 2021.10.02

ملخّص: إن الطابع التّعددي سواء اللّغوي أم الثّقافي في الجزائر على غرار كل الدّول، معطى تاريخي أسهمت في تكوينه مختلف الأحداث التي عرفتها المنطقة، عبر عصور عديدة وأوضاع مختلفة (اقتصاديّة تجاريّة، عسكريّة استعماريّة وثقافية اجتماعيّة)، فالجزائر مهد الحضارات وملتقى الثّقافات، التي شكّلت موروثا ثقافيا ولغويّا متنوعا كان ولازال مصدر تعايش بين سكان المنطقة، واستطاعت الحفاظ عليه رغم التهديد الكبير؛ الذي مس مقومات الهويّة الوطنيّة في ظل السياسة الاستعماريّة، التي عمدت إلى طمس أهم عنصر في خصوصيتها الثقافية وهو "اللّغة".

تجلّت تداعيّات الفترة الاستعماريّة في تغير النّظام اللّغوي في الجزائر، وظهور التّعددية اللّغوية كمظهر من مظاهر المشهد اللّغوي المعاصر فيها، والذي يعرف راهنا تحولات أخرى تمشيا مع إرهاصات العولمة الثقافية.

كلمات مفتاحيّة: الثقافة، التّنوع الثقافي، اللّغة، التّنوع اللّغوي، الحضارة.

Abstract: In Algeria, the pluralistic linguistic and cultural character is a historical fact that has been shaped by the various events that the region has known. Algeria is the cradle of all civilizations and the crossroads of all cultures, which has constituted a diverse cultural and linguistic heritage that was and still is a source of coexistence among the populations of the region , and was able to preserve it despite the great threat to the foundations of national identity the colonial policy, which deliberately obliterated the most important element of its cultural specifity, which is "the language".

The repercussions of the colonial period were manifested in the change in the linguistic system and cultural scene in Algeria, which currently defines other transformations in line with the cultural globalisation.

Keywords: Culture, Cultural Diversity, Language, Language Diversity, Civilization.

* - جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، الجزائر.

البريد الإلكتروني: sidhoumbani@gmial.com (المؤلّف المرسل).

1. مقدّمة: الثقافة هي ظاهرة اجتماعيّة وتاريخيّة ملازمة لكل مجتمع وهي مصدر اتساقه وانسجامه، فثقافة المجتمع هي معيار تميزه واختلافه عن غيره من المجتمعات، بما تحمله من سمات وعناصر متكاملة ومتداخلة تتوارثها الأجيال وتحافظ عليها؛ من قيم وعادات وتقاليد وأعراف ولغة ودين، وغيرها من أساليب العيش وأنماط الفكر وقواعد السلوك الموحدة، شارك في تشكلها كل أفراد المجتمع عبر مدة طويلة من الزمن وهي أساس تكوين شخصية الأمم ورمز وجودها.

والجزائر على غرار كل الدول والمجتمعات، لها تاريخ ثقافي وحضاري مميز ومتنوع، والتنوع الثقافي الذي تزخر به الجزائر يمتد في عمق التاريخ، وأسهمت في تشكيله مختلف الأحداث والظروف؛ فما هو مفهوم التنوع الثقافي واللغوي؟ وما هي طبيعة العلاقة بينهما؟ وما هي تجلياتها في المجتمع الجزائري؟

وتهدف هذه المساهمة إلى تسليط الضوء على أهمية الثقافة في حياة الأفراد والمجتمعات، وكذا أهمية التنوع اللغوي والثقافي ودوره في إقامة التكامل والتعايش بين أفراد المجتمع الواحد.

2. في ماهية التنوع الثقافي

1.2 . التحديد الإجرائي لمفهوم التنوع الثقافي: رغم كثرة تداول مفهوم الثقافة في مختلف المجالات، إلا أن مدلوله العلمي والمعرفي يلازمه الغموض والتشعب والتداخل مع مفاهيم أخرى لا تقل أهمية عنه، كما يندرج ضمن " المفاهيم المعقدة" (هارلمبس وهولبورن، 2010)[1]، يتضح ذلك من خلال التعريفات الكثيرة وفي مختلف الحقول المعرفية، التي حاولت تحديد عناصر الثقافة ومجالاتها ووظائفها، ويرى "برهان غليون" أن التعريفات المقدمة للثقافة تتباين " وتختلف حسب الأهمية التي تعطيها للفعل أو للنشاط الثقافي في التأثير على سير النظام الاجتماعي العام، وحسب اتساع المفهوم الذي تعطيه لها أو ضيقه[...] ومنهم من يعتبرها بنية أساسية تخضع لها جميع البنى الأخرى، كالأنثربولوجيا الثقافية التي تجعل من النظام الثقافي المنفذ إلى فهم نظام المجتمع العام وتنظر إليه على أنه بطانة هذا النظام ومكمن أسراره" (برهان غليون، 2006)[2].

وانطلاقا من تعدد الآراء حول أي من مظاهر الحياة الإنسانية ومعطياتها يعتبر جزءا من الثقافة على اعتبار أن تعريف الثقافة يرتكز على تحديد العناصر الداخلة في تكوينها، فقد حاول "كريستوفر جينز" أن يميز أربعة معاني رئيسية لمصطلح الثقافة (هارلمبس وهولبورن، 2010)[3]:

ـ الثقافة ينظر إليها أحيانا كحالة للفكر، فالثقافة كنوعية تكتسب من جانب الأفراد القادرين على التعلم وتحقيق الصفات المرغوبة لدى الكائن البشري المثقف؛

. يعتبر التعريف الثاني للثقافة؛ مجتمعات معينة أكثر رقيا من مجتمعات أخرى، فالثقافة هنا شديدة الارتباط بفكرة الحضارة، حيث تكون بعض المجتمعات أكثر ثقافة وحضارة من المجتمعات الأخرى، وهذه النظرة للثقافة تنقل بأفكار التطور مثل أفكار "هربرت سبنسر"؛

ـ أما التعريف الثالث يرى الثقافة كإطار جماعي للفنون والأعمال الذهنية لدى أي مجتمع منفرد، وهذا التعريف يستعمل بشكل واسع باعتباره له إحساس مشترك لدى الأفراد. ووفقه يمكن العثور على الثقافة في المسارح وفي قاعات الاحتفالات وصالات اللوحات الفنية الجميلة والمكتبات العامة بدلا من الامتداد إلى كل مظاهر الحياة الاجتماعية للإنسان، وبهذا المعنى يطلق على الثقافة أحيانا بالثقافة العليا؛

ـ والتعريف الأخير يرى أن الثقافة أسلوب كامل في حياة الناس، وهذا التعريف جرى اعتماده من قبل "رالف لنتون" حيث يؤكد: " أن ثقافة المجتمع هي طريقة حياة أفراده، وهي مجموعة الأفكار والعادات التي تعلموها وأسهموا فيها ثم نقلوها من جيل إلى آخر"، وهو التعريف الذي تبناه معظم علماء الاجتماع المعاصرين، فالثقافة وفق هذا المفهوم تنطوي على جميع المسائل التي تهم علم الاجتماع.

أما "كلود ليفي ستروس" (Levi-Strauss) فيوسع من معنى الثقافة ويعتبرها " مجموع أنظمة رمزية تقع في المرتبة الأولى فيها اللغة، وقواعد الزواج، والعلاقات الاقتصادية، والفنون، والعلوم، والدين. وتهدف كل هذه الأنظمة إلى التعبير عن بعض جوانب الواقع المادي والواقع الاجتماعي، بل وكذلك عن العلاقات التي توجد بين هذين النمطين من الواقع، والتي توجد بين الأنظمة الرمزية في ما بينها"(بسام بركة وآخرون، 2013)[4]، وبهذا تكون الثقافة هي الحاضنة لمجوع الأنظمة الاجتماعية المعبرة عن خصوصية المجتمع والتي تستند على اللغة كنظام أساسي فيها.

في حين يؤكد عبد الوهاب المسيري بأن "ثقافة مجتمع ما يشارك في صنعها أو التعبير عنها كل أعضاء المجتمع عبر مدة طويلة من الزمان. وهي المنظومة العقائدية والقيمية والأخلاقية والسلوكية للمجتمع، وهي التي تشكل خريطته الإدراكية وتحدد مجال إدراكه ووعيه وأنماط الشخصية فيه[...]، وهي وعاء هويته ومصدر تماسكه. علاوة على كل هذا تعبّرُ ثقافة المجتمع عن نفسها من خلال منتجاته الحضارية المختلفة، سواء كان طعاما أم دواء أم الغناء والرقص أم وسائل الإنتاج" (سوزان حرفي، 2010)[5].

فالثقافة إذا ظاهرة اجتماعية وتاريخية، تشمل الحياة المادية، والدين، واللغة، والقيم، والتربية والتعليم والعلاقات الاجتماعية، كما تتميز بمجموعة من الصفات، حسب ما جاء به علماء الاجتماع والأنثربولوجيا لعل أهمها (علي عبد الرازق جلبي، 1984)[6]:

ـ **الاستقلال عن الأفراد**: تمثل الثقافة **"التراث الاجتماعي"** الموروث عبر الأجيال، ويكتسبها الإنسان بالتعلم فنحن مثلا نتبع في بعض سلوكنا " الأنماط المعيارية التي نمت في مجتمعنا بدون التفكير فيها، وأي شيء آخر قد لا يكون متحملا لأنه قد يعني أننا يجب أن نتوقف ونفكر في كل موقف بأنفسنا، ونحن نريد أن نتصرف عادة بطرق مقبولة اجتماعيا وتحظى بقبول الآخرين، وحتى عندما توجد

معضلة بسبب مواجهتنا لموقف جديد بالنسبة لنا، فنحن نكتفي بالقبول: ماذا يفعل الناس عادة؟" (فرد ميلسون، 2008)[7].

. الاستمرار: تحتفظ بعض السمات الثقافية بكيانها لعدة أجيال، خاصة العادات والتقاليد لها قدرة كبيرة للانتقال عبر الزمان.

. التعقيد: تمتاز الثقافة بأنها كل مُعقدٌ لاشتمالها على عدد كبير من السمات والملامح والعناصر، ويرجع ذلك إلى تراكمها خلال عصور طويلة من الزمن، وإلى استعارة كثير من السمات من خارج المجتمع نفسه.

. انتقالية: ذلك لأن انتقال الثقافة من جيل إلى جيل وتوارثها، يتم على نحو انتقائي واعي، بحيث ينتقي الجيل الذي يتلقى عناصر الثقافة بعضها ويستبعد البعض الآخر طبقا لظروفه وحاجاته، وهذا يفسر إمكانية تغير الثقافة.

. التغير: يصيب التغير الثقافي كافة عناصر الثقافة المادية وغير المادية.

. التكامل: إذ تُظهِرُ كل الثقافات ميلا نحو التكامل بمعنى أنها تلتحم لتكون كلا متكاملا ومنسجما، وتميل عناصرها المختلفة من عادات وطرائق شعبية ونظم وتتعرض لضغط يقودها نحو التكامل والاتساق ببعضها البعض. كما أن الثقافة " تبدع وتنظم لدى جماعة ما حقل الدلالات (العقلية والروحية والحسية) وتحدد بالتالي لدى هذه الجماعة أسلوب استخدامها لإمكانياتها (البشرية والمادية) ونوعية استملاكها لبيئتها. ويكون نجاح الثقافة وتطورها بقدر فاعليتها في تحقيق الاستخدام الأمثل لإمكاناتها (الجماعة)، وهو ما ينعكس في قدرتها على التحكم بنفسها أي بصراعاتها الذاتية وبيئتها الخارجية" (برهان غليون، 2006)[8]، فقوة الثقافة تتجلى في قدرتها على الثبات أمام موجات التغير الاجتماعي والثقافي.

ويضاف إلى خاصية تعقد الثقافة وتشابك السمات الثقافية المكونة والمميزة لثقافة مجتمع ما، أنه على الرغم من أن المجتمع قد تسوده ثقافة واحدة، فإن هذا لا يستتبع بالضرورة وجود كل سمات هذه الثقافة في كل قطاعات المجتمع فقد يقتصر وجودها على بعض قطاعات المجتمع دون غيرها، الأمر الذي قد لا يمنع معه من أن توجد في كل قطاع أو جماعة محلية، ثقافتها الجزئية الخاصة بها(علي عبد الرازق جلبي، 1984)[9] "والثقافات الفرعية لا تشير إلى الجماعات الاثنية واللغوية في المجتمع الواسع فحسب، بل يمكن أن تدل على شرائح سكانية تميزها أنماطها الثقافية عن بقية المجتمع. وتضم هذه الثقافات الفرعية منظومة واسعة تشمل، على سبيل المثال، أنصار الطبيعة... قراصنة الحاسوب، مشجعي أندية كرة القدم" (أنتوني غدنز، 2005)[10].

وقد جرى تعريف "التنوع الثقافي" بأنه " تعدد الوسائل التي تجد فيها تعبيرها عن ذاتها ثقافات المجموعات الاجتماعية والمجتمعات"(أرمان ماتلار، 2008، 195)[11]، فالتنوع والتباين كما يرى "محمد

عمارة" "تعددية يراها القرآن الكريم الأصل الدائم والقاعدة الأبدية، والسنة الإلهية، التي هي الحافز للتنافس في الخيرات، والاستباق في الطيبات، والسبب في التدافع الذي يقوم ويرشد مسارات أمم الحضارات على دروب التقدم والارتقاء. فهي المصدر الباعث على حيوية الإبداع الذي لا سبيل إليه إذا غاب التمايز وطمست الخصوصية بين الحضارات (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين118) (سورة هود) ويضيف " فالتعددية هي الحافز على امتحانات وابتلاءات المنافسة والاستباق في ميادين الإبداع بين الفرقاء المتمايزين في الشرائع والمناهج والحضارات. وفي إطار تعددية "الشرائع"، تحت "جامع الدين" الواحد" جاء الحديث في القرآن الكريم عن نجاة أصحاب الشرائع المتعددة، إذا هم جمعتهم جميعا أصول الإيمان بالأولوهية الواحدة.) (محمد عمارة،1997)[12].(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) (سورة المائدة، الآية 48).

وفي منحى آخر ترى "كلير كرامش"أن مصطلح متعدد ثقافي يستخدم بطريقتين: المعنى الأول مجتمعي؛ لأنه يشير إلى التعايش بين الناس على اختلاف مشاربهم وأعراقهم كالشأن في المجتمعات متعددة الثقافات والطريقة الثانية بالمعنى الفردي؛ لأنه يصف الأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمعات خطاب متباينة، ومن ثم ينعمون بالموارد اللغوية والاستراتيجيات الاجتماعية للحاق والتماهي في ثقافات متعددة، وطرائق مختلفة في استخدام اللّغة(كلير كرامش، 2010)[13].

ويبدو أن السياق اللغوي لمدلول الثقافة أخذ منحى آخر مع ارتباط الثقافة بوسائل الاتصال الجماهيري كسمة مميزة لعصر التكنولوجيا، وظهور ما يسمى بالثقافة الجماهيرية، حيث "تنحو الثقافة تجاه الفردية، أما الثقافة الجماهيرية فتصب في الاتجاه المعاكس، نحو التماثل (صب الأرواح في قوالب متماثلة). عند هذه النقطة تنحرف الثقافة الجماهيرية عن الأخلاق وعن الثقافة. فالإنتاج بالجملة " للسلع الروحية" والنسخ المكررة للأدب المزخرف الرخيص يؤديان إلى سلب الشخصية. إن الثقافة الجماهيرية تختلف عن الثقافة الأصيلة في أنها تحدُ من الحريّة الإنسانيّة من خلال هذا الاتجاه نحو التماثل، ذلك لأن الحرية هي مقاومة التماثل... والثقافة الشعبية ثقافة أصيلة حية ومباشرة. وهي بريئة من البهرجة وقائمة على الإجماع والمشاركة، بينما المبدأ السائد في الثقافة الجماهيرية هو التلاعب (علي عزت بيجوفيتش، 1994)[14].

لذلك يتوجب على الفرد أن "يدافع عن هويته الثقافية وأن يتمسك بمقومات ثقافته الأصلية وعناصرها ومكوناتها، ولكن الخطأ أن يكون السبيل إلى ذلك هو الانطواء الثقافي على الذات والانغلاق عن التأثيرات الثقافية الأجنبية، لأن ذلك الانغلاق سوف يؤدي إلى جمود الثقافة [...] وعدم تجديد حيويتها وحرمانها من فرص التطور والتقدم والانطلاق إلى أفاق واسعة جديدة" (علي بن إبراهيم النملة، 2010)[15].

2.2 . الثقافة والوعي الجمعي: فإذا كانت اللغة ذات علاقة وثيقة بالثقافة فهي فصلتها بالوعي لا تقل أهمي، خاصة أن الوعي ينعكس في سلوكات الأفراد، كما أن الثقافة " لا تفهم إلا باعتبارها مظهرا للوعي الذي يستوعب الإنسان من خلاله، فردا وجماعة، العالم ويفهمه شفافا أي قابلا للتمثل الذهن. ولا تفهم أيضا إلا باعتبارها استجابة لواقع موضوعي، قائم خارج الذهن يفرض نفسه بصرف النظر عن الفكرة أو الصورة التي يصنعها له الوعي[...] فمن خلال هذه العلاقة الاجتماعية التاريخية بين الوعي والوجود، بين الذات والموضوع يولد واقع جديد، أو بنية موضوعية خاصة تؤثر في الوقت ذاته في طريقة عمل الوعي كذات فاعلة، أو كفعل إدراك، وفي طبيعة الواقع الخارجي، هي ما نسميه بالثقافة" (برهان غليون، 2006)[16].

وفي ذات السياق يرى "دوركهايم" أن الثقافة المشتركة أو الوعي الجمعي ضروريان إذا أريد للمجتمع أن يواصل حياته بانتظام. وهذه الثقافة توجد وفق رغبات وخيارات الأفراد وهي مقيدة لسلوكهم، فهي تنتقل نزولا من جيل إلى آخر... ويقول دوركهايم إن الوعي الجمعي لا يتغير بين الأجيال وإنما على عكس ذلك يقوم بربط الأجيال اللاحقة بجيل آخر (هارلمبس وهولبورن، 2010)[17]. و**الضمير الجمعي**، ينطوي على سلسلة من المبادئ هي حصيلة تراكم القواعد السلوكية في المجتمع، التي ينتظم بموجبها سلوك الفرد وأسلوب تفكيره (محمد الدروبي، 2004)[18].

ويشترك مفهوم " **الثقافة المشتركة**" و"**الضمير الجمعي**" بهذا المعنى مع مفهوم **"الوعي الاجتماعي"** والذي يعرف على أنه (عبد الله بوجلال، 1990)[19]:

– مجموعة المفاهيم والتصورات والآراء والمعتقدات الشائعة لدى الأفراد في بيئة اجتماعية معينة، والتي تظهر في البداية بصورة واضحة لدى مجموعة منهم ثم يتبناها الآخرون لاقتناعهم بأنها تعبر عن موقفهم؛

– محصلة معرفة وإلمام كل جماعة بالقضايا الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والثقافية على المستويين المحلي والوطني؛

– حصاد إدراك الناس وتصوراتهم للعالم المحيط بهم، بما يشمل عليه من علاقات بالطبيعة وبالإنسان وبأفكاره، وهو إدراك تصور يتحدد مجاله ببنائية تاريخية لمجتمع معين، بمعنى أن للوعي طابعه التاريخي البنائي.

فالوعي الاجتماعي أو الثقافة المشتركة حسب "دوركهايم" ـ يتشكل في سياق تاريخي معين وفي ظروف خاصة بكل مجتمع، ووفق آليات معينة تسمح بالانتقال العفوي لأفكار وتصورات معينة بين أفراد البيئة الاجتماعية الواحدة وتحقق التوحد الجمعي حول قضايا عامة، وحسب " بلعيد عبد السلام" ترتبط الثقافة بالرأسمال المعرفي وباللغة حيث "ينمو الرأسمال المعرفي بقدر نمو الثقافة الجامعة،

والوعي الجمعي، ولا تحققه إلا اللغة الوطنية المشتركة القادرة على تعميم التعليم، وإنتاج المعرفة ونقلها وتبسيطها وتوطينها وتعميق جذورها في المجتمع"(صالح بلعيد، 2021)[20].

لذا فإن التقدم المعرفي والحضاري لن يكون إلا من خلال نمو ثقافة تشد جسد المجتمع لا لتشتته، ومن خلال وعي جمعي تعززه اللغة " المشتركة القادرة على تعميم التعليم، وإنتاج المعرفة ونقلها وتبسيطها وتوطينها وتعميق جذورها في المجتمع... فالمعرفة تستنبت في بيئتها وفي عقول أبنائها، بلغتهم المشتركة لأن استيراد المعرفة مكلفة جدا، ثم هي متطورة دائما"(صالح بلعيد، 2021)[21].

3. التنوع اللغوي كمدخل لدراسة التعدد الثقافي للمجتمع الجزائري

1.3 . التحديد الإجرائي لمفهوم التنوع اللّغوي: أكرم الله الإنسان بالقدرة على الكلام ويسر له النطق وعلمه البيان عما في نفسه تمييزا له عن غيره من المخلوقات، حيث ورد في القرءان الكريم في سورة الرحمان: ﴿الرحمان(1) علم القرآن(2) خلق الإنسان(3) علمه البيان(4)﴾، فاللغة ظاهرة اجتماعية و" مؤسسة اجتماعية توجد حيث يكون المجتمع، وهي أداة تتطور بتطوره وتعكس هذا التطور في جوانبها المختلفة" (عبد الله محمد الغدامي، عبد النبي اصطيف، 2004، 109)[22]، لذلك تعددت الألسن باختلاف المجتمعات، واختلفت المجتمعات باختلاف لغاتها و"لكل لغة أعرافها، وتقاليدها، وإجراءاتها، وقواعدها في التفكير والتعبير والتوصيل"(عبد الله محمد الغدامي، عبد النبي اصطيف، 2004، 120)، ﴿ومن ءاياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ (سورة الروم: 22).

والتعدد اللغوي حسب الباحث المغربي" محمد الأوراغي" " يصدق على الوضعية اللسانية المتميزة بتعايش لغات وطنية متباينة في بلد واحد، إما على سبيل التساوي إذا كانت جميعها لغات عالمية كالألمانية والفرنسية والايطالية، في الجمهورية الفدرالية السويسرية، وإما على سبيل التفاضل إذا تواجدت لغات عالمة كالعربية بجانب لغات عامية مثل الهوسا والغورمانشة والسوناي زارما والتماشيق والفولفوادة والتوبو في جمهورية النيجر"(باديس لهويمل، نور الهدى حسني، 2014)[23]. ويقصد كذلك بالتنوع اللغوي" تعدد الصيغ المختلفة في لغة من اللغات"(محمد عفيف الدين دمياطي، 2017، 51)[24]، ويذهب "جون ديبوا" في قاموس اللسانيات إلى أن" التعدد اللغوي: عندما تجتمع أكثر من لغة في مجتمع واحد، أو عند فرد واحد ليستخدمها في مختلف أنواع التواصل والمثال المشهور هو دولة سويسرا حيث الفرنسية والايطالية والألمانية هي لغات رسمية لها"(باديس لهويمل، نور الهدى حسني، 2014)[25].

فالتعدد اللغوي ظاهرة اجتماعية تاريخية واسعة الانتشار لا سيما في المجتمعات المعاصرة، إلا أن أسبابه وإن اختلفت من مجتمع إلى مجتمع آخر، ومن فترة زمنية إلى أخرى، فغالبا ما يرتبط التعدد اللغوي فيها بعوامل تاريخية تمثلت في حملات الغزو العسكري وهيمنة لغة المستعمر على اللغة الأصلية

للدول المستعمرة، أو لعوامل اقتصادية والحاجة للتعرف على مختلف اللغات لإتمام الصفقات التجارية، أو بسبب الهجرة والحراك الاجتماعي، كما أن التنوع اللغوي بات ضرورة معرفية وحتمية في زمن العولمة، كما تعزى ظاهرة تنوع اللغات "إلى تعقد الروابط الاجتماعية. ولما كان من النادر أن يعيش فرد محصورا في مجموعة اجتماعية واحدة، كان من النادر أيضا أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفد إلى مجموعات مختلفة. إذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ويؤثر بلغته على لغة المجموعة المجاورة التي يدخل فيها"(جوزيف. فندرسون، 2014)[26].

لكن اللغة ليست مجرد رموز حيادية يتواصل بها أفراد المجتمع فحسب، بل تحمل تاريخ الشعوب وثقافاتها وفي هذا يقول " هادي نهر" "لا يمكن فهم اللغة، وقوانين تطورها بمعزل عن حركة المجتمع الناطق بها في الزمان والمكان المعينين، لأن فيها من الإنسان فكره، وطرائقه الذهنية، وفيها من العالم الخارجي تنوعه وألوانه"(هادي نهر، 1988)[27]، مما يعني أن وظيفة اللغة لا تنحصر في كونها وسيلة للاتصال، إذ يمكن أن تكشف الرموز التي يستخدمها الأفراد للتواصل عن طبيعة النظام الاجتماعي السائد في المجتمع، حيث يؤكد "فيريث" على الوظيفة الاجتماعية للغة، ويرى بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة[28] (أحمد مختار عمر، 1998)، هذه السياقات التي يمكن أن تجعل المعنى يختلف من بيئة اجتماعية لأخرى.

فاللغة تنقل الأفكار، وتورثها للأجيال القادمة، وتحافظ عليها من الزوال من خلال اللغة المكتوبة بمختلف ألوانها، يقول عبد الله محمد الغدامي "منظومة الأنساق الثقافية المكونة لذهنية أية أمة من الأمم تظل كامنة في نصوصها الأدبية الرسمية والشعبية، وهذه تتكامل مع التاريخ بوصفه نصا كبيرا وممتدا، فيجتمع التاريخ من جهة والنسق الثقافي من جهة ثانية، يجتمعان في تكوين ذات وطنية وجدانية وعقلية"(عبد الله محمد الغدامي، عبد النبي اصطيف، 2004)[29]، ذلك " أن بعض الروائيين هم في الواقع، إما دارسين لعلم الاجتماع، أو هم في الحقيقة يقدمون نصوصا انثربولوجية، الغرض منها تقديم صورة مجسدة للحياة اليومية المعيشة، ومن ثم فإن نصوصهم ومن ثم إبداعهم في الواقع عبارة عن دراسات اجتماعية أخذت شكل أو جنس أدبي" (أبو بكر أحمد باقادر، 2004)[30]. وتعتبر هذه النصوص بمثابة انعكاس لواقع اجتماعي وثقافي في حقبة زمنية معينة، وهذا ما يؤكد على العلاقة الوثيقة بين اللغة والثقافة والمجتمع، ولا يمكن أن ننكر دور النصوص الأدبية في المحافظة على التراث اللغوي والاجتماعي والثقافي للمجتمعات، فمن أبرز خصائص اللغة في النص الأدبي " أنها لغة مشحونة بأقصى الطاقات التعبيرية، ومحملة بأغنى الدلالات، والسبب في ذلك أنها مشحونة بالتراث الثقافي للمجموعة اللغوية التي تنتمي إليها، وبالتالي للأمة التي تتخذها أداة تعبير وتواصل وتفكير. وهي لذلك لغة موحية بما يحيط بها من ظلال ممتدة عبر القرون" (عبد الله محمد الغدامي، عبد النبي اصطيف، 2004، 81 ـ 82)[31].

لكن وبقدر مسؤولية اللغة، إلا أنها مجبرة على مسايرة موجات التغير الاجتماعي، الذي يضع الأنظمة اللغوية للمجتمعات أمام أدوار جديدة لعل أهمها مواكبة اللغات الأخرى، خاصة في عصر الانفتاح العالمي، لأن "تطور اللغة المستمر في معزل عن كل تأثير خارجي، يعد أمرا مثاليا لا يكاد يتحقق في أي لغة. بل على العكس من ذلك فإن الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيرا ما يلعب دورا هاما في التطور اللغوي. ذلك لأن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية، واحتكاك اللغات يؤدي حتما إلى تداخلها" (جوزيف. فندرسون، 2014)[32]، وهو ما يعرف بـ "تداخل اللغات" تحت تأثير ظروف تاريخية أو اقتصادية استوجبت تعاملات عن طريق اللغة المفهومة بين الطرفين، وهنا تبرز مكانة اللغة عالميا وقوتها " لأن قوة اللغات ليست واحدة، ومن ثم كانت تختلف قدرتها على المقاومة" (جوزيف. فندرسون، 2014، 349)[33].

2.3 سياقات التّنوع اللّغوي والثّقافي في الجزائر: المطّلع ولو بصورة بسيطة على تاريخ الشمال الإفريقي منذ القدم، يتساءل عن سر صموده أمام الثقافات الوافدة على المنطقة، وفي هذا يقول "عمار بوحوش" سكان شمال إفريقيا الذين أطلق عليهم اليونان والرومان اسم "بربر" بصفتهم أجانب لا يتكلمون لغتهم ويرفضون الاندماج فيهم، قد أثبتوا أنهم أصحاب شخصية قوية وأمة مستقلة عن الرومان بحيث أنهم حافظوا على هويتهم ولم يندمجوا في حضارات غيرهم[...] ولم يذوبوا في حضارات الدول الغازية، وحافظوا على هويتهم ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وخاصة خارج المدن" (عمار بوحوش، 2008)[34].

فلقد شهدت المنطقة حروبا مستمرة مع الغزاة الأجانب، لكن الوضع تغير مع الفتوحات الإسلامية أين برزت بوادر الاستقرار "وحسب شهادة بعض المؤرخين الأوروبيين فإن البربر قد خسروا في حروبهم مع البزنطيين في منتصف القرن السادس للميلاد، خمسة ملايين من الأنفس، وعندما جاءت الديانة الإسلامية، عقب هذه الحروب المدمرة مع الأربيين، خلقت المحبة والمودة بين العرب والبربر بحيث امتزج واختلط العرب والبربر بسرعة" (عمار بوحوش، 2008، 8 . 9)[35].

لكن الجزائر عرفت تهديدا آخر مس عناصرها الثقافية وهويتها الوطنية، بدخول الاحتلال الفرنسي وتطبيقه لمختلف السياسات التي كانت تهدف في الأساس إلى طمس الهوية الجزائرية ومحاربة اللغة العربية كونها لغة القرآن التي وحدت أهل المغرب العربي في دين واحد.

"تمكنت اللغة العربية من مقاومة اللغات الوافدة عليها وبالأخص لغة الاستعمار الفرنسي التي عمل على أفولها قرنا ونيف، إلا أنها بقت ثابتة بفضل تضحيات أبنائها العلماء والمشايخ وحفظة القرآن الكريم، إذ ظلت اللغة الأم المشتركة بين القمة والقاعدة، كونها لغة الأمة التي يعني مفهومها: " الكيان الأوسع والشامل في الانتماء الحضاري والثقافي المشترك[...]ولا بدّ أن الجانب السياسي يغلّبها على

اللغات الوطنية واللغات الأجنبية، وهذا يستدعي تدبيرا عقلانيا يراعي التعدد بحسبب المقام والذي يحافظ على التماسك والتعايش."(صالح بلعيد، 2021)[36]

ولأن ثقافة الشعوب تنتقل بواسطة مؤسسات التنشئة الاجتماعية وعلى رأسها المؤسسات التعليمية " يعرف حاليا التسيير المدرسي للغات في المنظومة التربوية الجزائرية إعادة انتشار هام بفضل تطبيق الإصلاحات" لأجل ذلك كان المسعى في إعداد برامج ومناهج بغية اعتماد نظرة " نسقية شاملة الاختيارات المعتمدة والأهداف، المسطرة ومنهجيات التعليم والتعلّم المطبقة في إطار هذا التنظيم اللغوي"، ولقد سطرت الدّولة إستراتيجية من خلال تحويل بيداغوجي يتمثل في " تحسين تعليم اللغة العربية قصد إعطائها دورها البيداغوجي والاجتماعي والثقافي الكامل لسدّ حاجات تعليم ذي نوعية، قادر على التعبير عن عالمنا الجزائري العربي الإفريقي، المتوسطي والعالمي، ثم امتصاص النجاحات العلمية التكنولوجية والفنية عبر العالم ونقلها"، وبذلك فإن اللغة العربية تأخذ مهمة التكفل بمحتويات اللغات الأخرى من خلال التحويل المعرفي" الذي يساعد على تعزيز الشعور بالانتماء. ولأن العربية " هي اللغة الوطنية الرسمية، وإحدى المركبات الأساسية للهوية الوطنية الجزائرية، وأحد رموز السيادة الوطنية وأساسها الرئيس" حسب ما جاء في الدليل المنهجي لإعداد المناهج لوزارة التربية الوطنية.

كما أن الغاية من دمج اللغة الأمازيغية وإدراجها في المنظومة التعليمية وتعميمها فلأجل" إيجاد حل للمشاكل التي تطرحها كتاباتها والتوصل إلى نمط موحد لها[...] وإدراجها في المنظومة التربوية يتجاوز مجرد تعليم لغة، بل المسألة تتعلق بالهوية. فهي إرث وتراث مشترك بين الجزائريين، وترتكز على العمق التّاريخي الراسخ في الواقع المعاصر للجزائر والمغرب ككل[...] فالأمازيغية تمثل لغة الأم، وواقع لساني وطني هام، واقع ثقافي وحضاري وطني، أحد الأبعاد الرئيسية للهوية الوطنية" حسب ما جاء في الدليل المنهجي لإعداد المناهج لوزارة التربية الوطنية.

كما ورد في ذات الدليل أن اللغات الأجنبية تم إدراجها في التعليم وتشجيع المجتمع لإتقانها" إذ أصبح انتشار هذا التعليم سريعا بفضل الابتكارات العلمية والتقنية الجديدة، والعولمة وتطوّر تكنولوجيا الإعلام والاتصال"، فاللغات الأجنبية تعتبر من أدوات النجاح في عالم الغد فتعليمها" يمكن الجزائريين من الاطلاع المباشر على المعرفة العالمية، والتفتح على ثقافات أخرى، وإحداث نوع من التمفصل الناجح" ولأن العربية " هي اللغة الوطنية الرسمية، وإحدى المركبات الأساسية للهوية الوطنية الجزائرية، وأحد رموز السيادة الوطنية وأساسها الرئيس" (اللجنة الوطنية للمناهج) إن وظائف اللغات الأجنبية " محددة في القانون التوجيهي، وتعلم كأدوات للتواصل يمكن من الولوج المباشر إلى الفكر العالمي، ومن إثارة التفاعلات الخصبة مع اللغات و الثقافات الوطنية الأخرى، وإسهامها في التكوين الفكري والثقافي والتقني، ويمكنها من رفع قدرات التنافس في عالم الاقتصاد"

(اللجنة الوطنية للمناهج، ص47) وبذلك نخلص إلى ضرورة إعتماد مبدأ المرونة في سبيل تعايش وإحداث تكامل بين الغايات المذكورة آنفا، وتهيئة وسط مناسب يتميز بالتعدد في السياق اللغوي الجزائري[37].

كما أن المناهج التعليمية تحرص على تعريف الأجيال بالتراث الوطني وتنوعه، من خلال مختلف الدروس الموجهة للتلاميذ في مختلف الأطوار التعليمية، ومثال ذلك جاء في الدرس المعنون بـ " أحافظ على التراث الوطني وأعتز به" في كتاب التربية المدنية السنة الرابعة من التعليم الابتدائي الصفحة 16، "يعد التراث الوطني بشقيه، المادي واللامادي أحد أبرز العناصر التي تدخل في تكوين شخصية الأمة ورمز وجودها. والمحافظة عليه وترقيته ضرورة لا بد منها...".

4. خاتمة: ومن خلال ما تم عرضه نجد أن أهم ما يميز المجتمعات هو اختلاف ثقافتها، بسبب تباين العوامل والأسباب المؤثرة على مساراتها التاريخية والاجتماعية والثقافية، والتي

أسهمت في تكوين خصوصيتها الثقافية، التي تميزها عن غيرها من المجتمعات، وبالمقابل يتيح التنوع للأفراد داخل المجتمع الواحد إمكانية التجانس والانسجام والاتساق والتكيف مع الظروف والأزمات الخارجية والداخلية.

كما أن التعدد اللغوي الذي يعتبر من أهم مظاهر التنوع الثقافي بل وأبرزها، بات ضرورة حتمية لا مفر منها ولكن في مقابل ذلك ونظرا لكون اللغة حاملة الثقافة؛ لا بد من الاستناد إلى الثوابت الوطنية والمحافظة عليها وتسخير كل مؤسسات التنشئة الاجتماعية لنقلها للأجيال اللاحقة.

فإذا كانت الخصوصيات الثقافية هي أساس التباين والاختلاف داخل المجتمع الواحد، فإن العناصر المشتركة أو ما يسمى بالعموميات الثقافية تسهم في العمل على تكامل المجتمع ووحدته، وتساعد على تقوية وترسيخ قيم المواطنة.

5. قائمة المراجع:

- <u>المؤلفات:</u>
- أبو بكر أحمد باقادر، قراءات في علم اجتماع الأدب (الجزائر: دار الهدى، 2004).
- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، (القاهرة: عالم الكتب، ط5، 1998).
- أرمان ماتلار، التنوع الثقافي والعولمة، تر: خليل أحمد خليل، ط1، (بيروت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم دار الفارابي، 2008).
- أنتوني غدنز، علم الاجتماع، تر: فايز الصياغ، ط1، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005).
- بسام بركة وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكالية التعليم والترجمة والمصطلح، ط1 (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).

- برهان غليون، اغتيال العقل،، ط4، (المغرب، المركز الثقافي العربي، 2006).
- جوزيف فندريس، اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد االقصاص، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2014).
- عبد الله محمد الغدامي، عبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط1، (دمشق: دار الفكر 2004).
- علي عبد الرزاق جلبي، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، (بيروت: دار النهضة العربية 1984).
- محمد عفيف الدين دمياطي، مدخل إلى عام اللغة الاجتماعي، ط2، (إندونيسيا: مكتبة لسان عربي للنشر والتوزيع، 2017).
- سوزان حرفي، الثقافة والمنهج (حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري)، ط1، (دمشق: دار الفكر2010).
- هارلمبس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، ط1، (سورية: دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.
- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1962، (الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع 2008).
- <u>المقالات:</u>
- باديس لهويمل، نور الهدى حسني، مظاهر التعدد اللغوي وانعكاساته على تعليمية اللغة العربية، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد (30)، 2014
- عبد الله بوجلال، إشكالية تحديد مفهوم الوعي الاجتماعي، المجلة الجزائرية للاتصال، العدد04 الجزائر 1990.
- صالح بلعيد، اللغة الوطنية المشتركة والتنمية البشرية، مجلة فواصل، مؤسسة الشعب، العدد1 فيفري /مارس، 2021.

1. هوامش:

1- هارلمبس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، (سورية: دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، ط1)، 2010

2- برهان غليون، اغتيال العقل، (المغرب: المركز الثقافي العربي، 2006)، صص 74 ـ 75.

3- هارلمبس وهولبورن، المرجع السابق، صص 7 ـ 8

4- بسام بركة وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكالية التعليم والترجمة والمصطلح، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1،2013)، صص34 ـ 35.

5- سوزان حرفي، سوزان حرفي، الثقافة والمنهج (حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري)،(دمشق: دار الفكر ط1، 2010)، ص179.

6- علي عبد الرازق جلبي، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، (بيروت: دار النهضة العربية، 1984) صص 73 ـ 76.

7- فرد ميلسون، الشباب في عالم متغير، ترجمة: يحي مرسي عيد بدر، (الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2008)، ص62.

8- برهان غليون، المرجع السابق، ص79.

9- علي عبد الرازق جلبي، المرجع السابق، ص74.

10- أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة: فايز الصياغ، ط1، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005) ص85.

11- أرمان ماتلار، التنوع الثقافي والعولمة، ترجمة: خليل أحمد خليل، (بيروت: دار الفرابي،2008)، ص195.

12- محمد عمارة، التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1997)، صص 7 ـ 6.

13- كلير كرامش، الغة والثقافة، تر: أحمد الشيمي، (قطر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2010)، ص135.

14- علي عزت بيجوفيتش، لإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، ط2، (مصر: دار النشر للجامعات، 1997)، ص106.

15- علي بن إبراهيم النملة. الاستثناء الثقافي في مواجهة الكونية (ثنائية الخصوصية والعولمة)، ط1 (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2010)، ص15.

16- برهان غليون، المرجع السابق، ص77.

17- هارلمبس وهولبورن.المرجع السابق، ص20.

18- محمد الدروبي، وعي السلوك الكونفورميا وأنظمة الوعي، (دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر، 2004) ص61.

19- عبد الله بوجلال، إشكالية تحديد مفهوم الوعي الاجتماعي، المجلة الجزائرية للاتصال، العدد04، الجزائر 1990، ص47.

20- صالح بلعيد، اللغة الوطنية المشتركة والتنمية البشرية، مجلة فواصل، مؤسسة الشعب. العدد1 فيفري /مارس، 2021، ص27.

21- صالح بلعيد، نفس المرجع، صص27 ـ 28.

22- عبد الله محمد الغدامي، عبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط1، (دمشق: دار الفكر، دمشق 2004)، ص109.

23- باديس لهويمل، نور الهدى حسني، مظاهر التعدد اللغوي وانعكاساته على تعليمية اللغة العربية، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد (30)، 2014، ص103 ـ 104

24- محمد عفيف الدين دمياطي، مدخل إلى عام اللغة الاجتماعي، ط2، (اندونيسيا: مكتبة لسان عربي للنشر والتوزيع، 2017)، ص51.

25- باديس لهويمل، نور الهدى حسني، المرجع السابق، ص103.

26- جوزيف فندريس، اللّغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد االقصاص، (القاهرة: المركز القومي للترجمة 2014)، صص 306 . 307.

27- هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، ط1، (العراق: جامعة المستنصرية،)1988، ص18.

28- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط5، (القاهرة: عالم الكتب، 1998)، ص68.

29- عبد الله محمد الغدامي، عبد النبي اصطيف، المرجع السابق، ص152.

30- أبو بكر أحمد باقادر، قراءات في علم اجتماع الأدب، (الجزائر: دار الهدى، 2004)، ص20.

31- عبد الله محمد الغدامي، عبد النبي اصطيف، المرجع السابق، صص81 . 82.

32- جوزيف. فندرسون، المرجع السابق، ص348.

33- جوزيف. فندرسون، نفس المرجع، ص349.

34- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، (الجزائر: دار البصائر، 2008) ص8.

35- عمار بوحوش، نفس المرجع، صص 8 . 9.

36- صالح بلعيد. المرجع السابق، ص27.

37- انظر: اللجنة الوطنية للمناهج. الدليل المنهجي لإعداد المناهج. وزارة التربية الوطنية. الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، نسخة مكيفة مع القانون التوجيهي للتربية المؤرخ في 23 يناير 2008، الجزائر ط2016 صص 44 ـ47.